Makale Türü / Article Type / نوع المقالة : Araştırma Makalesi / Research Article / البحث
Geliş Tarihi / Date Received / تاريخ الاستلام : 28.07.2021 • Kabul Tarihi / Date Accepted / تاريخ القبول : 28.11.2021
Atıf / Cite as / الاحالة : Çavuş, Muhammed Murtaza, Eyass Alrashed "الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصفهاني قراءة نقدية." *Mîzânü'l-Hak: İslami İlimler Dergisi* 13 (Aralık 2021): 387–412.

الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصفهاني قراءة نقدية

الملخص: يحاول هذا البحث قراءة كتاب الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصفهاني قراءة نقدية من خلال دراسة منهج أبي الفرج والمصطلحات التي استخدمها والظروف التي أحاطت بتأليف هذا الكتاب وقيمته التاريخية والأدبية، وماذا أضاف إلى حركة التأليف حول أدب النساء، ثم انتقل البحث إلى التدقيق في شعر هؤلاء الشواعر فنياً، وهل كانت هؤلاء الشواعر التي اختارهن أبو الفرج على سوية واحدة من الإبداع؛ أضف إلى ذلك: هل أسهمت هؤلاء الشواعر في تطور القصيدة العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين أم اقتصر دورهن على نظم الشعر الذي سيُغنَّى في حضرة الأعيان والخلفاء، وهل كان لهذا الشعر قيمة فنية من حيث التصوير والتجويد، وما المواضيع التي طرقتها هؤلاء الشواعر.

الكلمات المفتاحية: الإماء الشواعر، أبو الفرج الأصفهاني، قراءة نقدية، تطور القصيدة، شواعر القرن الثاني.

Muhammed Murtaza ÇAVUŞ *

Eyass ALRASHED **

Ebü'l-Ferec el-İsfahânî'nin el-İmâ ü'ş-şevâ ir Adlı Eserini Eleştirel Okuma

Öz: Bu araştırma; metodolojisini, kullandığı terminolojiyi, kitabın telif edildiği dönemin konjonktürünü, edebiyat tarihi açısından değerini ve kadın şairler literatürü etrafında gelişen telif hareketine katkılarını inceleyerek Ebü'l-Ferec el-İsfahânî'nin el-*İmâ ü'ş-şevâ ir* kitabını eleştirel bir şekilde okumaya çalışmaktadır. Ardından da bu şairlerin şiirlerini teknik açıdan incelemeye geçmekte ve şu soruları ele almaktadır: Acaba Ebü'l-Ferec'in seçtiği bu şairler yaratıcılıkla aynı seviyede miydi? Bu şairler Hicri II. ve III. yüzyıl Arap şiirinin gelişimine katkı sağladı mı yoksa sanatlarının etkisi devlet erkanı ve idareciler önünde okunan şiirlerle mi sınırlı kaldı? Bu şiirlerin betimleme ve ifade güzelliği açısından teknik bir değeri var mı? Bu şairlerin ele aldıkları konular nelerdi?

Anahtar Kelimeler: Cariye şairler, Ebü'l-Ferec el-İsfahânî, Eleştirisel Okuma, şiirin gelişmesi, II. Asır şairleri.

***al-Emaa al-Shwaer* by Abu al-Faraj al-Isfahani Critical Study**

Abstract: This review aims to critically read the book of *al-Emaa al-Shwaer* by Abu al-Faraj al-Asfahani, by studying the methodology of Abu al-Faraj and the terminology he used, the surrounding circumstances of writing this book and its historical and literary value, and what he added to the authorship movement of women's literature. Then we moved to scrutinize the poetry of these poetess artistically, and if these poetesses that Abu Al-Faraj chose were on the same level of creativity. In addition to that, it tackled if these poetesses contributed to the development of the Arabic poetry in the second and third centuries AH, or if their role was limited to the compositions of poetry that would be sung in the presence of notables and caliphs, and if this poetry has an artistic value in terms of imagery and intonation, and the topics that these poets discussed.

Keywords: *al-Emaa al-Shwaer*, Abu al-Ferec al-Asfahani, Critical Reading, the development of poetry, poets of the Second Century.

* Öğr. Gör. Dr. Dokuz Eylül Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Temel İslam Bilimleri Bölümü, Arap Dili ve Belagatı Anabilim Dalı. E-Posta: murtazacavus@hotmail.com ORCID ID: https://www.orcid.org/0000-0002-1248-4829

* Dr. Öğr. Üyesi. Atatürk Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Temel İslam Bilimleri Bölümü, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı. E-Posta: alrashid.iyas@gmail.com ORCID ID: https://www.orcid.org/0000-0001-7824-8952

مقدمة

للمرأة الشاعرة حضور واضح منذ الجاهلية، ولا تخطئ العين قصائد الخنساء في أخويها صخر ومعاوية، وحضورها النقدي في سوق عكاظ، وقد ألف عبد مهنا: معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام، وترجم فيه لخمسمئة وخمس شواعر، واعتذر في مقدمة كتابه عن أنه لم يُحط بكل الشواعر، وأن العدد أكثر من ذلك بكثير[١]، وهذا دليل على أن للشعر مكانة عند العرب وأنه جزء من خصائصهم الحضارية، ولكن الاحتفاء بشعر النساء لم يكن بمنزلة الاحتفاء بشعر الرجال، فقد كانت رواية شعر الرجال مُقدَّمة، ولولا أن أخبار هؤلاء النسوة الشواعر وردت متناثرة في كتب التاريخ والأدب لطواها النسيان، ولم يكن بوسعنا الوصول إلى بعض المقطعات ونتف الأخبار التي رويت عنهن. وقد اهتمت الشواعر في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي بكل المواضيع التي كانت تخص الرجال، وإن تقدمت عليهم في موضوع الرثاء، لأن حساسية المرأة وتفجعها أعلى من الرجل، ولكننا نجد أيضاً هجاءً ومدحاً وغزلاً فيما وصلنا من الأشعار.

لقد حظي أدب النساء باهتمام أبي الفرج الأصفهاني، ومن يقلب في صفحات كتابه الشهير الموسوم بالأغاني يجد سرداً شيقاً للشواعر والمغنيات وذوات الظرف، وقد ألف كتباً تختص بأدب النساء، منها كتابه: الإماء الشواعر، الذي تقوم الدراسة عليه، وهناك كتب ضاعت من مثل: تحف الوسائد في أخبار الولائد، وكتاب: القيان، وقد ذكره الأصفهاني في الأغاني، ومنه نقول في بدائع البدائه للأزدي، وذكر السخاوي أنه يقع في مجلدين، وكتاب النساء، وهو من المصادر التي عول عليها التجاني في كتابه تحفة العروس، وصار هذا الكتاب لاحقاً ملهماً لمن كتبوا في أدب النساء، كابن النجار، وابن الساعي، وأسامة بن منقذ، وابن الطراح، والسيوطي، وعمر رضا كحالة، ومصطفى جواد[٢].

إن حركة التأليف حول أدب النساء في العصر العباسي تثبت أن النظر إلى دور المرأة في الحَراك الثقافي قد تغير، وأن الأدباء والنقاد والمؤرخين كانوا على قناعة أن المرأة جزء مهم في الدورة الإبداعية في ذلك العصر، بل أبعد من ذلك، فهي جزء من الحركة السياسية والصراع على السلطة، ولها دور كبير في نقل هذه الأحداث وتقييدها على أقل تقدير،

١ مهنا عبد، *معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام؛ خطوة نحو معجم متكامل*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠)، ٧.

٢ أبو الفرج الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، تحقيق: جليل العطية، (بيروت: دار النضال، ، ط١، ١٩٨٤)، مقدمة المحقق.

حتى لا تضيع فيما مضى من الأخبار والأحداث، وخصوصاً أن الإماء الشواعر كن في قصور الخلفاء أو بيوت الأعيان، وهذا ما يجعلهن شهوداً على مرحلة تاريخية بكل تجلياتها السياسية والاجتماعية والثقافية، ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب، وهو ما جعلنا ننفض الغبار عنه من جديد لندرس منهج الأصفهاني بوصفه ناقداً ومؤرخاً وجامعاً للأخبار والأشعار، ولنفهم من خلال هذا المجموع الشعري حياة خلفاء بني العباس في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وحياة الناس في أهم حاضرتين في بلاد الإسلام في ذلك الزمان، وهما بغداد و(سُرَّ مَنْ رأى) . لقد كانت الإماء الشواعر شواهد على مرحلة مهمة من تاريخ الإسلام، وهي مرحلة النضج الحضاري والثراء والبذخ والصراعات السياسية التي أطاحت بوزراء وقادة وأمراء ومن ثم خلفاء؛ هذه الصراعات التي أدخلت الخلافة في طور التوقف عن النمو ومن ثم الاضمحلال وصولاً إلى الفناء.

١ – منهج الأصفهاني في هذا الكتاب

ألف الأصفهاني هذا الكتاب بطلب من الوزير المهلبي، وقد بيّن ذلك في مقدمة الكتاب؛ حيث قال: «كان الوزير _أطال الله بقاءه _ذاكرني منذ أيام فيمن قال الشعر من الإماء المماليك، وأمرني أن أجمع له ما وقع إلي من أخبارهن في الدولتين الأموية والعباسية.

ولم أجد في الدولة الأموية منهن شاعرة مذكورة ولا خاملة، لأن القوم لم يكونوا يختارون مَن في شعره لين، ولا يرضون إلا بما يجري مجرى الشعر الجزل المختار الفصيح، وإنما شاع هذا في دولة بني هاشم، فذكرت منهن ما وقع إليَّ من خبر مستحسن أو شعر صالح، ورسمت ذلك على قدر مراتبهن في أشعارهن وأزمانهن»[٣].

وقد ترجم الأصفهاني في هذا الكتاب لثلاث وثلاثين شاعرة من الإماء، وقد ذاع صيت بعض هؤلاء؛ من مثل: عنان ومحبوبة وفضل وعريب، وبعضهن طوت الأيام ذكرهن؛ من مثل: عارم وسمراء وهيلانة ومها وأمل، ومن هنا تأتي أهمية الكتاب بوصفه وثيقة تاريخية قيدت ما غيبته صروف الدهر. وقد بين الأصفهاني منذ البداية أن هذا الكتاب كان بطلب من الوزير المهلبي[٤]، بعد أن ذاكره فيمن قال الشعر من الإماء المماليك، وهذا مؤشر على

٣ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٢٣.

٤ الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون، من ولد المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أبو محمد: من كبار الوزراء، الأدباء الشعراء. اتصل بمعز الدولة بن بويه، فكان كاتبا في ديوانه، ثم استوزره.وكانت الخلافة للمطيع العباسي. فقربه المطيع، وخلع عليه،

الحالة الأدبية في ذلك العصر، واهتمام النخبة الحاكمة بأيام العرب وأشعارها، وعلى تقريب أهل السلطة الأدباء، وكيف كانت تعقد مجالس السمر التي يتناول فيها الجالسون أخبار الغابرين وأشعارهم، وقد بين الأصفهاني أنه قام ببحث دقيق لهؤلاء الشواعر منذ عهد بني أمية، ولكن معيار الشاعرية في عصر بني أمية مختلف عن عصر بني العباس، فلم يكونوا يقبلون إلا بالجزل الرصين من الشعر، أما في عصر بني العباس فصار معيار الشاعرية مختلفاً من حيث اللغة، ومن حيث الصورة، وعلى الرغم من ذلك فإن الأصفهاني طبق معايير خاصة لانتقاء الشواعر اللواتي يحق لهن ولوج هذا الكتاب؛ فتخيرَّ الشعر المستحسن؛ فجعل الشاعرية والزمان المعيار الذي على أساسه انتقى هؤلاء الشواعر.

وقد ذكر أبو الفرج أوصافاً للإماء الشواعر، وهذا الأوصاف جعلتهن مقدمات وفق معياره؛ فدنانير «شاعرة أديبة فصيحة»[٥] وفضل جارية المتوكل «أديبة فصيحة، سريعة الهاجس، مطبوعة في قول الشعر، متقدمة لسائر نساء زمانها فيه» [٦] وصرف جارية ابن خضير «شاعرة، فصيحة، مغنية، حسنة الوجه والغناء، كاتبة، من مولدات البصرة ولها صنعة في الغناء »[٧]، ويقول عن عَريب المأمونية: « ما رأيت امرأة قط أحسن وجهاً وأدباً وغناء وشعراً وضرباً ولعباً بالشطرنج والنرد من عَريب !وما تشاء أن تجد خصلة حسنة ظريفة بارعة في امرأة إلا وجدتها فيها» [٨] ووصف جارية ابن الأحدب النخاس بالـ «مبتذلة »[٩] وسكن جارية طاهر بن الحسين « قوية الطبع في قول الشعر »[١٠] و« كانت متيم تعبث بقول الشعر»[١١]

فالتقدم في الأدب والشعر والفصاحة وسرعة الهاجس والظرف وحسن الوجه والغناء هي المعايير التي يقدم فيها أبو الفرج الشاعرة أو يقصيها؛ لذلك قال عن جارية ابن الأحدب النحاس: إنها مبتذلة، وقال عن متيم: إنها تعبث بالشعر.

ثم لقبه بالوزارة. فاجتمعت له وزارة الخليفة ووزارة السلطان، ولقب بذي الوزارتين، وكان من رجال العالم حزماً ودهاء وكرما وشهامة: وله شعر رقيق، مع فصاحة بالفارسية وعلم برسوم الوزارة. ولد بالبصرة، وتوفي في طريق واسط، وحمل إلى بغداد. جمع المعاصر جابر بن عبد الحميد الخاقاني، ما وجد من شعره في ثلاث عشرة صفحة كبيرة، في مجلة المورد. ينظر : خير الدين الزركلي، *الأعلام*، (بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢)، ٢١٣/٢.

٥ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٥٣.

٦ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٦٠.

٧ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٩٧.

٨ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ١٣٦.

٩ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*،٢٢١.

١٠ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٨٩.

١١ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ١١٩.

لننظر في هذا الجدول ثم سنحلل الإحصائيات:

الشاعرة	عدد صفحات الترجمة في الكتاب	عدد الأبيات	المواضيع
عَنان جارية الناطفي	٢٢	٥٧	غزل، هجاء، وصف، مدح، رثاء، دعوة للشرب والقصف.
دنانير جارية محمد بن كناسة	٣	٩	رثاء، غزل
فضل جارية المتوكل	٢٢	٧١	غزل، هجاء، وصف، مدح، رثاء، دعوة للشرب والقصف
تيماء جارية خزيمة بن خازم	٤	٣	غزل
سَكَن جارية طاهر بن الحسين	٢	٥	مدح، غزل
فنون جارية يحيى بن معاذ	١	٤	حكمة
صرف جارية ابن خضير	٢	٢	غزل
نسيم جارية أحمد بن يوسف الكاتب	١	٧	رثاء، اعتذار
عارم جارية زلْبهدة النخاس	١	١	هجاء مقذع
سلمى اليمامية جارية أبي عباد	٢	٦	غزل
مراد جارية علي بن هشام	٢	١٠	غزل، حكمة
متيَّم الهشامية جارية علي بن هشام	٣	١١	شوق، استعطاف، رثاء
سمراء وهيلانة	٢	٢	وصف لسمراء فقط
ظلوم جارية محمد بن مسلم الكاتب	١	٦	شوق
عريب المأمونية	١١	١٠٩	غزل، وصف، عتاب، مدح، رثاء، دعوة للشرب والقصف
عامل جارية زينب بنت إبراهيم	١	٤	عتاب
ريَّا وظمياء	١	٦	مدح وحكمة أربعة أبيات لظمياء
محبوبة جارية المتوكل	٣	١٧	شوق، رثاء، غزل، شفاعة، اعتذار
بَنان جارية المتوكل	١	١	عتاب

ريَّا جارية إسحق الموصلي	١	٣	غزل
أمل جارية قرين النحاس	١	٦	غزل
مثل جارية إبراهيم بن المدبر	١	١	حكمة
نبْت جارية مخفرانة المخنث	٢	٢	غزل
رابعة جارية إسحاق بن إبراهيم بن مصعب	٢	٦	خمريات
صاحب جارية ابن طرخان النخَّاس	١	٣	غزل
قاسم جارية ابن طرخان النخاس	١	١	وصف
بدعة الكبرى جارية عريب	٢	١١	غزل، مدح
مها جارية عريب	١	١	حكمة
جلنار جارية أخت راشد بن إسحق الكوفي الكاتب	٢	٤	غزل
خنساء جارية البرمكي	٢	٧	وصف
غصن جارية ابن الأحدب النخاس	٢	٣	غزل

عدد أبيات الشواعر الواردة في الكتاب: ٣٧٩

عدد أبيات الغزل والدعوة إلى الشراب والقصف:١٦٢

عدد أبيات المدح: ١١٥

عدد أبيات الرثاء: ٢٦

عدد أبيات الهجاء: ٢٠

عدد أبيات الوصف: ٢٣

عدد أبيات الاعتذار: ١٩

عدد أبيات الحكمة: ١٠

عدد أبيات الاستعطاف: ٤

عنان وعريب وفضل ٢٣٧ بيتاً

١.١ قراءة الإحصائيات:

لم تكن الترجمات والمختارات متساوية؛ فقد استهل الأصفهاني كتابه بذكر عَنان جارية الناطفي، وذكر كثيراً من أخبارها وأشعارها؛ إذ بلغت ترجمتها اثنتين وعشرين صفحة، وذكر أخبارها ومطارحاتها مع العباس بن الأحنف ومهاجاتها وغزلها مع أبي نواس، ثم ترجم بعدها لدنانير بثلاث صفحات فقط، وذكر لها تسعة أبيات، ثم عاد ليكتب ترجمة مطولة لفضل جارية المتوكل باثنتين وعشرين صفحة أيضاً، وذكر لها واحداً وسبعين بيتاً، ثم ذكر ترجمات قصيرة لعدة شواعر، وبعدها عاد ليترجم لعرَيب المأمونية بإحدى عشرة صفحة، وذكر لها واحداً وسبعين بيتاً، فكانت عَريب أكثر الشواعر شعراً في هذا الكتاب، وسرد لها أخبارا كثيرة وأشعاراً متنوعة؛ فقد عمرت وكان لها شعر في المستعين والمعتز، ولها مدائح فيهما.

واحتلت هؤلاء الشواعر أكثر من ثلثي الكتاب، أما بقية الإماء فقد كانت ترجمتهن بسيطة لا تستطيع من خلالها تبيان حياتهن أو شعرهن، وكثير منهن ذكر لها بيتين أو ثلاثة، وبعضهن بيتاً واحداً، ولم يذكر لهيلانة أي بيت، لذلك فإن التصورات التي يمكن للمرء أن يستجليها عن شعر هؤلاء الشواعر وعصرهن تؤخذ من تأريخ أبي الفرج للشاعرات الثلاث، عَنان وفضل وعَريب المأمونية. أما بقية الشواعر فيستطيع المرء تجميع صورة من نثُار كثير ومتنوع حتى يصل إلى تصور عن المجتمع وعلاقته بالإماء الشواعر، وتجلي هذا الانعكاس في الشعر الذي وصل إلينا.

فقد ذكر لتيماء جارية خزيمة بن خازم ثلاثة أبيات فقط، ولم يسرد لها أخباراً يستطيع المرء من خلالها فهم الظروف التي عاشتها أو علاقتها مع المجتمع، ولم يذكر على لسانها آراء أو ملاحظات تخص الحياة في زمنها، ومثلها سَكَن جارية طاهر بن الحسين فقد ذكر لها خمسة أبيات وخبر تجهزها لليلة حمراء مع مولاها، وهذا الأمر ينسحب على فنون جارية يحيى بن معاذ؛ حيث ذكر لها أربعة أبيات، وصرف جارية ابن خضير مولى جعفر بن سليمان فقد ذكر لها أربعة أبيات، ونسيم جارية أحمد بن يوسف الكاتب ذكر لها سبعة أبيات في رثاء سيدها، وذكر سمراء وهيلانة في خبر واحد، وذكر لسمراء بيتين، ولم يذكر أبياتاً لهيلانة، وقد جمعهما في خبر واحد لأن تهاجياً حصل بينهما، ولكنه لم يذكر أخباراً عن هذا التهاجي، وذكر ريَّا وظمياء في خبر واحد لأنهما كانتا لنخَّاس واحد واشتراهما المتوكل، ولكن لا أخبار عنهما سوى خبر شرائهما، وذكر لبيان جارية المتوكل بيتاً واحداً، ولمثَل جارية إبراهيم بن المدبر بيتاً واحداً، وانسحب هذا الأمر على قاسم جارية ابن طرخان،

ومها جارية عَريب، فقد ذكر لكل منهما بيتاً واحداً، وظلت سيرتهما وأخبارهما طي النسيان فلم يستطع أبو الفرج على الرغم من أنه شمَّر عن ساعديه بطلب من المهلبي، وهو الخبير بتتبع الأخبار؛ أقول: لم يستطع الوصول إلى سيرة ذاتية واضحة لأغلب شواعر هذا المجموع، ولم ينجح في نقل صورة واضحة عن شعر الشواعر وبيئتهن وظروفهن، سوى ثلاث شواعر؛ لأنهن كن على تماس مباشر مع الخلفاء ويدرجن في قصورهم، ولهن مطارحات مع رواد هذه القصور من شعراء وأدباء، ولهن اختلاط مع أعيان، لذلك فشت سيرتهن وتناقل الناس أخبارهن، لأنهن يعشن ويتحركن في مركز الخلافة، أما بقية الشواعر فقد كن بعيدات عن هذا المركز، وقد كانت أخبارهن شحيحة لأن حركتهن كانت في أوساط محدودة، والعيون التي تنظرهن وتراقبهن أقل بكثير من العيون التي تبصر عَريباً وفضلاً وعَنان، يضاف إلى ذلك أن كثرة عدد الجواري في ذلك العصر ومنهج القوم ورغبتهم بشراء الجارية الشاعرة الفصيحة المغنية لا يعني أن قول الشعر كان فاشياً بين الإماء، وذلك لأن كثيراً منهن كن يصلن حديثاً من بلاد الترك والزنج وبلاد ما وراء النهر، وهذه الأقوام لا تحسن العربية وهي قريبة عهد بها، لأننا نتحدث عن القرنين الثاني والثالث الهجريين، فكان كثير من الجواري تلازمهن العُجمة، وتحتاج وقتاً طويلاً حتى تحسن العربية وتتأدب بها، ناهيك عن قولها الشعر؛ هذا إذا كان طبعهن مؤاتياً لذلك وعندهن استعداد فطري لقوله، لذلك نرى احتفاء أبي الفرج بالبيت والبيتين، وغلبة المقطعات على هذا المجموع، لأن هؤلاء الإماء الشواعر المذكورات هنا لم يكنّ من طبقة الشواعر اللواتي مر ذكرهن في التاريخ، كالخنساء وليلي الأخيلية اللواتي كن ينظمن القصائد الطويلة، وهذا ما سنتحدث عنه مفصلاً في مواضيع شعر الإماء الشواعر.

٢ – مواضيع شعر الإماء:

٢. ١ الغزل والخمر والقصف.

تغيرت حياة الناس في الدولة الإسلامية في الطور العباسي، وذلك لأن الامتزاج الاجتماعي ظهر جلياً في خلافة بني العباس، وصارت بغداد مثالاً لهذا الامتزاج الثقافي لكل الشعوب التي دخلت الإسلام، وهذه الشعوب جلبت معها ثقافتها، وصار الترف بادياً للعيان، لتصبح الجواري حالة واضحة في شكل الدولة الجديد، وبدا لكل قريب أو مدقق انغماس كثير من الناس والخلفاء في حياة الترف، ولتظهر مع هذا الميول إلى الترف ظاهرةُ الإماء

الشواعر التي احتفى بها الخلفاء والأعيان وأثرياء القوم، وسجل لنا أبو الفرج في كتابه هذا كثيراً من أخبار هؤلاء النساء وأشعارهن وعلاقتهن بالخلفاء، أو مع أسيادهن، ومع الشعراء، وذكر كثيراً من المساجلات الشعرية التي كانت جزءاً من الحياة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ومن هذه المساجلات الشعرية يستطيع المرء أن يكوّن صورة عن حياة القصور وعن نمط حياة الخلفاء والأعيان؛ تلك الحياة التي كانت بعيدة عن أعين العامة، وكيف أسهمت هؤلاء الشواعر في صناعة المشهد الثقافي في تلك الحقبة؛ «ففي العصر العباسي تصبح الحياة — ولا سيما في الكوفة والبصرة – حضرية مبالغة في الحضارة، وتنشأ بجانبهما بغداد، ينشئها المنصور على طراز كأنه اشتق من الفرس؛ فالحياة فيها فارسية أو تكاد، فالناس يحتفلون بالنيروز وأعياد الفرس، ويلبسون ملابسهم، ويتعودون عاداتهم في مأكلهم ومشاربهم، والخلفاء يعيشون محجوبين عن العالم يخاطبون الناس من وراء حجاب، وقد أقبلوا على الغناء كما كان يقبل عليه ملوك الفرس»[١٢] ولأن الغناء صار جزءاً من حياة بني العباس فقد استلزم ذلك شيوع الجواري اللواتي صرن ظاهرة واضحة، فقد استُجلبن من أماكن كثيرة من بلاد الروم والترك والفرس والهند والحبشة والنوبة وشمال إفريقيا والخزر[١٣]، فحدث امتزاج ثقافي كبير لحضارات مختلفة فـ «خلَّف حياة جديدة امتزجت بالترف ومظاهر الثراء والبذخ وانتشار الجواري والقيان وازدهار الغناء»[١٤].

لقد كان الغزل وموضوع الدعوة إلى الشراب الموضوع المهيمن في الكتاب وذلك للدور الذي كانت تقوم به الجواري؛ لأنهن استُجلبن لهذه المهمة، ومن أجل ذلك كانت العناية بهن، ولم يكن طبقة واحدة، بل كان التفاوت كبيراً في الأموال التي تدفع من أجل شرائهن، بل صار استجلاب الجواري وتدريبهن حرفة رائجة في ذلك العصر «فقد دعاهم الشغف بالغناء إلى تعليمه الجواري للتمتع بغنائهن ومنظرهن معا. وتعلم الغناء استتبع تعلم الأدب؛ لأن الناس في ذلك العصر كانوا يتغنون بالشعر العربي الفصيح، كشعر بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية، والمغنية لا تحسن هذه الأشعار إلا إذا أجادت مخارج الحروف واطلعت على كثير من الأدب. فإذا صح لسان الجارية وبرؤ من عيوبها أرسلت إلى علماء اللغة لتنهل من أسرار بلاغتهم وتتقن نحوهم وتتعلم آداب المجالس، من حسن استماع

١٢ شوقي ضيف، *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*، (مصر: دار المعارف، ط١١، ١٩٦٠)، ٥٩.

١٣ فصَّل جورجي زيدان في هذا الموضوع، للاستزادة ينظر: جرجي زيدان، *تاريخ التمدن الإسلامي*، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط١، ٢٠١٢)، ٣٤/٥، ٣٧.

١٤ محمد زكي العشماوي، *موقف الشعر من الفن والحياة*، (بيروت: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨١)، ٥٢.

ومحادثة غدت لمناظرة فحول الشعراء ونظم جيد الشعر الذي يدغدغ العاطفة ويثير الشهوة، وتصدر مجالس أشراف القوم»[١٥].

احتفى أبو الفرج في كتابه الإماء الشواعر بعَنان لأنها «أول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية وأفضل من عرف من طبقتها، ولم يزل فحول الشعراء في عصرها يلقونها في منزل مولاها فيقارضونها الشعر وتنتصف منهم»[١٦]؛ لذلك ارتبط اسم عَنان بأسماء كثير من شعراء بني العباس، وكانت محجاً لهم قال أبو الفرج: «حدثني أحمد بن معاوية قال: سمعت أبا حنش يقول: قال لي النطافي يوماً: لو جئت إلى عنان فطارحتها فعزمت على الغدو إليها وبت ليلتي أجول ببيتين، ثم غدوت عليها، فقلت: أجيزي هذين البيتين وأنشد يقول:

أحبَّ الملاحَ البيضَ قلبي وإنَّما ... أحبَّ الملاحَ الصُّفرَ من ولدِ الحَبشْ
بكيتُ على صفراءَ منهنَّ مرةً ... بكاءً أصابَ العينَ منيَّ بالعَمَشْ
فقالتْ: بكيتَ عليها؟ إنَّ قلبي أحبَّها ... وإنَّ فؤادي كالجناحين ذو رَعَشْ
تُعنتُنا بالشعرِ لمّا أتيتناد ... فدونَك خذه محكماً يا أبا حنش» [١٧]

وقد ذكر الأصفهاني في هذا الكتاب مطارحات شعرية لاختيار مجلس لهو وقصف، بين عَنان مع مجموعة من الشعراء الماجنين في عصرها، مثل: داود بن رزين الواسطي، وحسين بن الضحاك، وفضل الرقاشي، وعمرو الوراق، وحسين بن الخياط، وبعد أن قال كل واحد من الشعراء مقطوعة يذكر فيها محاسن المجلس الذي يدعو إليه هذه الكوكبة من الماجنين ويزين لهم المجيء لأن لذائذه تفوق الوصف، قالت عنان:

١٥ ليلى حرمية الطبوبي، *القيان والأدب في العصر العباسي الأول*، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠١٠)، ٣٨.

١٦ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٢٨.

١٧ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٢٩.

«مهلاً فديتُك مهلا عَنانُ أحرى وأولى
بأن تنالوا لديها أشهى الطعامَ وأحلى
فإنَّ عندي حراماً من الشرابِ وحلا
لا تطمعوا في سوى ذا من البرية كلا
كم أصدقوا بحياتي أجاز حكمي أم لا؟

فقالوا جميعاً:

قد جاز حكمك فاحتبستهم ثلاثاً يقصفون عندها»[١٨]

وفي خبر فضل الشاعرة أن أحدهم أهداها إلى المتوكل، فكانت تجلس في مجلسه على كرسي، وتقارض الشعراء والشعر بحضرته، فألقى عليها يوماً أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي:

«قالوا عشقتَ صغيرةً فأجبتُهم أشهى المطيِّ إليّ ما لم يُرَكَبِ
كم بينَ حبَّةِ لؤلؤٍ مثقوبةٍ لُبِسَتْ وحبةِ لؤلؤٍ لم تُثقَبِ

فقالت فضل مجيبة له:

إنَّ المطيَّةَ لا يلذُّ ركوبُها حتى تذلَّلَ بالزمامِ وتُرَكَبِ
والدرُّ ليسَ بنافعٍ أربابَه حتى يؤلَّفَ بالنظامِ ويُثقَبِ»[١٩]

استلذَّ الندماء في جلسات لذتهم إيراد هذه الأبيات لما فيها من إيحاء شهواني، وليس في الأبيات من شيء طريف على مستوى الصورة، ولذلك ألقى أبو دلف العجلي على فضل الشاعرة هذه الأبيات في حضرة المتوكل، لأن هذا الجلوس كان على مائدة اللذة والارتياح والتفكُّه، فردت فضل الشاعرة الأبيات، ونقضت المعنى محافظة على الإيحاء الشهواني، وبطبيعة الحال فإن الخليفة سيستملح هذه المعاني والطريقة في مجلسه هذا.

١٨ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٣٩، ٤٠.
١٩ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٦١.

وفي خبر عن فضل: أن رجلاً كان يجمعها به مجلس الخليفة، وكان يهواها ولا يطلعها على حبه لها، وقد كتب لها:

ألا ليتَ شعري عنكِ هل تذكرينَني فذكرُك في الدنيا إلى حبيبُ
وهل لي نَصيبٌ في فؤادك ثابتٌ كما لكِ عندي في الفؤادِ نصيبُ
ولستُ بمتروكٍ فأحيا بزورةٍ ولا النفسُ عندَ اليأسِ عنك تطيبُ

فكتبت إليه هذه الأبيات:

نعم وإلهي إنني بكَ صبةٌ فهل أنتَ يا من لا عدمتُ مثيبُ
لمن أنتَ منه في الفؤادِ مصوَّرٌ وفي العينِ نُصبَ العينِ حين تغيبُ
فثقْ بودادٍ أنتَ مُظهرُ فضلهِ على أنَّ بي سُقماً وأنتَ طبيبُ[٢٠]

ففي مجالس الأنس التي كانت تجمع الخليفة وصحبه من الشعراء وأهل الذوق والظرف، كان حُسْن الجواري وظرفهن وثقافتهن وإحسانهن في الشعر والغناء هو الحامل الرئيس لهذه المجالس، وكانت هؤلاء الجواري اللواتي في قصور الخلفاء من أحسن نساء العالمين في زمانهن جمالاً ورقةً وبداهةً وإحساناً للشعر؛ لذلك كانت هذه الصفات جاذبة لحاضري هذه المجالس، ولربما وقعت إحدى هؤلاء الجواري في نفس أحدهم فراسلها يبثها شجنه ولوعات العشق، وأن فراقها يخلف كمداً وحسراتٍ، فكانت الجواري الشواعر يجبن على القول بقول، ويصرحن بالصبابة، وأن هذا المرسِلَ مصوَّرٌ في الحشا، وأن فراقه داءٌ عَياء، وهو الطبيبُ الذي ستبرأ بلقياه، وعلى الرغم من رقة هذه الأبيات والشجن المبثوث فيها والشكوى من الفراق والتصريح بالهيام، إلا أن المرء لا يستطيع أن يزعم أن الشواعر الجواري في هذه الأشعار كن صادقاتٍ فيما يعتمل في نفوسهن، لأنهن جزء من اللذات التي يتناهبها الرجال، وكن ينتقلن من ولاية إلى ولاية، ومن سيد إلى سيد، ومن يد نخاس إلى يد نخاس، فلم تكن هذه الأشعار أكثر من محاكاة لنماذج سائدة في الحب والشغف؛ فتحاكي هؤلاء الشواعر هذه النماذج العليا، ولا سيما أن قصيدة الصبابة والشوق والترف في العصر العباسي قد صار لها معجمُها الخاص الذي تجده في عموم شعر تلك المرحلة.

٢٠ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٦٤-٦٥.

ولننظر إلى هذا الخبر عن فضل نفسها مع الخليفة المتوكل: قال أبو الفرج: «حدثني علي بن المنجم، وقد حدثني بعض أصحابنا عن رجل عن علي بن يحيى قال: دخلت على المتوكل يوماً، فدفع إلي رقعة وأمرني بقراءتها، فقرأتها فإذا فيها:

قد بَدا شبهُك يا مو لاي يَحدو بالظلامِ

قُمْ بنا نَقْضِ لُبانا تِ التئامٍ والتزامِ

قبلَ أنْ تفضحنا عو دةُ أرواحِ النيامِ

فقلت: ملَّح والله قائلها فمن هو؟

قال: واعدت فضلاً البارحة، أن تبيت عندي، فسكرتُ سكراً شديداً منعني من ذلك، فلما أصبحتُ وجدتُ هذه الرقعةَ في كمّي وهي بخطها»[٢١]

هذه الأبيات توضح الحالة العاطفية التي كانت عليها الإماء الشواعر، فهي في نهاية المطاف مملوكة لسيدها، وهي في حالة فضل الشاعرة مملوكة للخليفة الذي يقرّبها لتكون استراحته الدائمة، وهي تعرف تماماً اللُّباناتِ التي يبتغيها المتوكل منها؛ فتوجه إليه الرسالة الواضحة طالبة إياه على مائدة اللذة، محرضةً له على أن تكون دائماً المحظية التي تتشوق إليه وتأمل أن لا تفارقه، وهذا لا يعني أن هؤلاء الإماء الشواعر لم يكن ذواتِ قلوب تميل وتعشق، ولكن الحياة الخاصة والروحية ليست ملكهن بحكم الرق.

لذلك سنجد نصوصاً لهؤلاء الشواعر تنسف تصوراتنا السابقة عن نظرة المرأة لمن تعشق، فلن يكون محبوبها مُلكاً خاصاً بها تفتك بمن يقترب منه، بل إنَّ الغيرة من الأخريات ليست واردة في هذه السياق لننظر إلى هذا الخبر:

«خرجت قبيحة إلى المتوكل في يوم نيروز، وفي يدها كأس بلور شراب، فقال لها: ما هذا؟ قالت: هديتي إليك في هذا النيروز عرفك الله بركته، فشرب الكأس، وقبل خدها، فقالت فضل:

٢١ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٦٦.

سُلافةٌ كالقَمرِ الباهرِ في قَدَحٍ كالكوكبِ الزاهرِ
يُديرُها خَشْفٌ كبدرِ الدُجى فوقَ قضيبٍ أهيفٍ ناضرِ
على فتىً أروعَ من هاشمٍ مثلِ الحسامِ المرهفِ الباترِ»

وقبيحة هي أجمل جواري الخليفة المتوكل ومحظياته، وقد ولدت له ابنه الخليفة المعتز، وسميت قبيحة لشدة جمالها، فلم يجدوا وصفاً لها سوى وصفها بالضد[٢٢]، وأبيات فضل الشاعرة في هذا المشهد تشيد فيه بجمال قبيحة وهيبة الخليفة المتوكل، ولم تمنعها غيرة النساء من الثناء على جمال قبيحة والاحتفاء بهذا المشهد الغرامي بين حبيبها في الأبيات السابقة وبين محظية أخرى، وهذا ما يبين لنا أن جزءاً كبيراً من شعر الإماء الشواعر هو ذو بعد توثيقي هدفُه وصف المشهديات المتعددة لليوميات التي تمر بهن، فإذا غمزها أحد الحاضرين ردت عليه بغمزة، وإذا كاتبها كاتبته، وإذا طلب منها الخليفة وصف شيء أو إجازة أبيات فعلت، وإذا دعاها للفراش لبت، وإذا تجانف عنها لذَّ له سعيها الحثيث إليه ليكون هذا النشاط الشعري جزءاً من دور الجواري في إشاعة البهجة في القصور، ودليل ذلك قول الأصفهاني: « وكانت فضل تهوى سعيد بن حُميد ويهواها، ولكل واحد منهما في صاحبه أشعار ... ثم عدلت عنه إلى بُنان المغني فعشقته»[٢٣]

وكما أن لكل خليفة عدداً من المحظيات من جميلات عصره، انسحب هذا الأمر كذلك على الجواري، فلم تقنع الواحدة منهن بحبيب واحد؛ فقد «حدث ابن المعتز أن بعض جواريه حدثه أن عَريباً كانت تتعشَّق صالحاً المنذري الخادم وتزوجته سراً، فوجه به المتوكل في حاجة إلى مكان بعيد فقالت فيه شعراً، وصاغت فيه لحناً في خفيف الثقيل وهو:

أمَّا الحبيبُ فقد مضى بالرغمِ منِّي لا الرِّضا
أخطأتُ في تركي لمن لم ألقَ منه عِوضا
لبعدِه عن ناظري صرتُ بعيش عَرضا

٢٢ عمر رضا كحالة، *أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام*، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت)، ١٨٥/٤، ١٨٧.

٢٣ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٧٠، ٧١.

وغنته يوماً بين يدي المتوكل فاستعاده مراراً، وجواريه يتغامزن ويضحكن، ففطنت وأصغت إليهن سراً من المتوكل، وقالت: يا سحاقات هذا خير من عملكن»[٢٤]

لذلك صار مفهوم العلاقة بين الرجل المالك والمرأة الجارية قائماً على علاقة جسدية، وانتقل المفهوم نفسه إلى الإماء الشواعر في علاقتهن مع الشعراء؛ فاليوم خمرٌ وغداً أيضاً خمرٌ، والليالي بالنسبة لهن ستلد كل عجيب عندما يحسن توظيف الجسد واصطياد سيد ينقلها إلى مرتقى أعلى، وقصة هارون الرشيد وعنان خير مثال على ذلك، حيث سعت عنان أن تتخلص من الناطفي الذي يقربها إلى الخليفة الذي وقعت في نفسه، ولكن هجاء أبي نواس المقذع لها منع الخليفة من شرائها. «ثم عرضت على الرشيد فدخلت عليه تتبختر، فقال لها: أتحبين أن أشتريك؟ قالت: ولم لا أحب ذلك يا أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً ... فقال لها: والله لولا أن العيون ابتذلتك ابتذالاً مشتركا كبيراً، لاشتريتك، ولكنه لا يصح للخليفة من هذه سبيله. وردها إلى مولاها»[٢٥]

وقد باحت فضل الشاعرة بهذا الأمر لسعيد بن حمُيد أيام كانت بينهما محبة وتواصل:

ولكنني أُبدي لهذا مودةً وذاكَ وأخلو فيكَ بالبثِّ والوجدِ»[٢٦]

ومن ذلك خبر فضل مع سعيد بن حميد «جاءته في آخر النهار، وجلسنا لنشرب فاستأذن غلامه لبُنان فأذن له ــ فدخل ــ إلينا وهو يومئذ شاب طرير، حسن الوجه حسن الغناء سري الملبوس عطر الشكل، فذهب بها كل مذهب، وبان فيها ذلك بإقبالها عليه، بنظرها وحديثها، فتنمَّر سعيد واستُطير غضباً، وتبين بُنان القصة فانصرف، وأقبل عليها سعيد يعذلها ساعة ويوبخها، ويؤنبها أخرى وهي تعتذر، ثم سكت، فكتبت إليه فضل:

٢٤ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ١٣٨.
٢٥ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٣٦.
٢٦ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٧٧.

يامَنْ أطلتُ تفرُّسي في وجْهِهِ وتَنفُّسي
أفديكَ من مُتَدلّلٍ يُزهى بقتلِ الأنفسِ
هَبني أسأتُ وما أسأ ثُ بلى أقولُ أنا المسي
أحلفتني أن لا أسا رقَ نظرةً في مجلسِ
فنظرتُ نظرةَ مخطئٍ ووصلتُها بتفرُّسِ
ونسيتُ أنِّي قد حلفتُ فما عقوبةُ من نسي؟
يا مَنْ حكاهُ الياسمينُ وطيبُ ريحِ النَّرجسِ
اغفرْ لعبدِكَ ما جنا هُ من اللِّحاظِ الخلَّسِ

وزادت فيه عَريب:

قالوا: عقوبتُهُ الجفا ويُسا إليهِ كما يُسي

فقام سعيد وقبَّل رأسها، وقال: لا عقوبة عليك، بل يحتمل هفوتك، ويتجاوز عن إساءتك، وغنَّت عريب في هذا الشعر رملاً وهزجاً، وشربنا عليه بقية يومنا ثم افترقنا، وقد أثَّر بنُان في قلبها، وعلقته ولم يزل يواصلها سراً حتى ظهر أمرهما»[٢٧]

لقد تغير كل شيء في العصر العباسي، فقد اندثر إلى غير رجعة مفهوم الحب العذري الذي اشتهر في القرن الهجري الأول، ذلك الحب الذي كان عماده وحدانية المحبوب والإخلاص له. لقد كان العذريون يصدِّقون قول المحبوب، ويرضون بفعله ويجدِّون في السعي إليه، أما الفراق فدونه الموت أو الجنون. لم يعد هذا المفهوم مقبولاً في هذا العصر الذي امتلأ بآلاف الجواري من كل حدب وصوب، وانتشرت هؤلاء الجواري في القصور ودور الأعيان والمترفين في بغداد التي تعانق دجلة والفرات، ولم يعد لشجر الغضا محل هنا، وابتعدت صورة الظباء التي تشبهُ ليلى وبثينة، وصارت في حياة الرجل عشرات الجواري إن كان موسراً، ومئات إن كان ذا ضياع وتجارة ودكاكين، وآلاف إن كان ذا سلطة، وهؤلاء الجواري دون تاريخ يعينهن على الحاضر؛ لذلك فعيونهن دائماً على المستقبل، وحتى يستطعن العيش منعَّمات

٢٧ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٧٨، ٧٩.

في هذا البحر اللجي المتلاطم بالنخاسين وجواريهم فإن فرصة العيش في قصر خليفة أو دار وزير تحتاج بذل الكثير جسدياً ونفسياً، ولا سيما أنَّ فكرة الانتقال من يد إلى يد واردة دائماً؛ لأن البضاعة تتجدد كل يوم. لننظر في هذا الخبر: «ولما انكشف لسعيد بن حميد عشق فضل الشاعر لبُنان واصل جارية من جواري القيان فكتبت إليه فضل:

يا عاليَ السنِّ سيءِّ الأدبِ شبْتَ وأنتَ الغلامُ في الطَرَبِ
ويحكَ إنَّ القيانَ كالشَّرَكِ المنصوبِ بين الغُرورِ والعَطَبِ
لا يتصدَّينَ للفقيرِ، ولا يطلبْنَ إلاَّ معادنَ الذهبِ»[٢٨]

وفي هذا المعنى تقول فنون جارية يحيى بن معاذ:

يا ذا الذي لامَ في تخريقِ قرطاسي كم مرَّ مثلُك في الدنيا على راسي[٢٩]

فالجارية قشة في مهب الريح، فلربما أمست في بغداد، ثم ينادي المنادي لترحل إلى سيد آخر، ثم يستقر بها الحال في القيروان، لذلك ثمة عقد ضمني تعاقدت الجواري فيه مع المجتمع؛ فهي تطمع بذي المال ولا يخلب لبها في الرجال غير ذلك، وإذا ظفرت به فله كل لباناته. ولكن ثمة استثناءات أوردها أبو الفرج في كتابه، وفي الحديث عن فضل نفسها إذ قال: «لما اتصل ما بين بُنان وفضل الشاعرة، وعدلت عن سعيد بن حميد أسف عليها، وجزع جزعاً؛ امتنع من الشراب، وعشرة الأخوان، وهو مع ذلك يظهر التجلُّد، ثم قال فيها:

قالوا تعزَّ فقد بانوا فقلتُ لهم بانَ العزاءُ على آثارِ مَنْ بانا
وكيف يملكُ سُلواناً لحبِّهم مَنْ لم يُطق للهوى سِرَّاً وإعلانا
كانتْ عزائمُ صبري أستعينُ بها صارت عليَّ بحمدِ الله أعوانا
لا خيرَ في الحبِّ لا تبدو شواهدُهُ ولا ترى منهُ في العينينِ عُنوانا»[٣٠]

٢٨ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٨٢.
٢٩ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٩٣.
٣٠ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٨٠.

فالشعر يستطيع في كثير من الأحيان فضح المسكوت عنه، وإظهار المشاعر الحقيقية والهواجس التي تأكل روح الشاعرة التي تحاول تغييبها بعيداً؛ لأن واقعها لا يسمح، وكما تقول العرب: المرء مخبوء تحت لسانه. لننظر في هذا الخبر: «حدثني جعفر بن قدامة، قال: حدثني ابن حمُيد، قال: قلت لفضل الشاعرة أجيزي:

مَنْ لمحبٍ أحبَّ في صِغَرِهْ؟

فقالت:

فصارَ أُحدوثةً على كِبَرِهْ!

فقلت:

من نظرٍ شفَّه وأرَّقَهُ

فقالت:

فكان مبدا هَواه من صبره!

ثم شُغِلتْ بالشراب هنيئة، ثم قالت:

لولا الأماني لماتَ من كَمَدٍ مَرُّ الليالي يزيدُ في فِكَرَه
ليسَ لهُ مُسعدٌ يُساعدُه بالليلِ في طُوله وفي قِصَره
الجسمُ يبلى فلا حَراكَ بِهِ والروحُ فيما أرى على إثْرِه»[٣١]

هذا الخبر لا يشبه الأخبار السابقة التي رواها الأصفهاني التي تنقل لنا المطارحات الشعرية التي كانت تدور بين الشعراء والشواعر، التي كانت في أغلبها في جلسات أنس وقصف، وقد ابتدأت هذه الجلسة كسابقاتها، حيث ألقى ابن حمُيد شطراً على فضل الشاعرة التي أجازت البيت الأول، ثم ألقى شطراً آخرَ ثم أجازته.. لتصمت منشغلةً بشرب الخمر حيث عبت ما شاء لها الزمان والمكان والرغبة، ثم ليسري دبيب الخمر في عروقها ويسرقها من واقعها، ويحطم الأغلال التي تقيد لسانها؛ تلك الأغلال التي جعلت هؤلاء الشواعر ينقلن صورة مبهجة عن هذه القصور وهذه الجلسات وهذه المطارحات، حتى يظن المرء أن هذه

٣١ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٦٩.

الجلسات فضاء فرَّ من الجنة لاكتنازه باللذة، ولكن فضلاً الشاعرة صمتت هنيهة بعد أن تملكتها الخمرة ورققت طبعها وأعادت لها روحها، فانطلقت تكمل الإجازة؛ فهي إنسانة محطمة تمشي على عكاز الأمنيات، وحينما تنتهي جلسات القصف واللذة فإنها تخلو إلى نفسها فيستطيل الليل الذي يتحول إلى جحيم مطبق، وليس لها من مؤنس يساعدها على الخروج من مرارة هذا الليل ليذبل الجسم رويداً رويداً لتتبعه الروح في الهلاك . لقد كانت فضل في قمة صدقها الروحي والفني في هذه الأبيات؛ إذ بينت حال البؤس والشظف الروحي الذي تعيشه هؤلاء الإماء الشواعر اللواتي صارت حياتهن تمثيلية طويلة لا تنتهي؛ ظاهرها نعيم مقيم وباطنها بؤس ووحدة وانتظار هلاك.

ومثل ذلك قول سلمى اليمامية جارية أبي عباد:

يكفي الزمانُ فعالَه يكفي أبقى البغيضَ وبزَّني إلفي
يا نازحاً شطَّ المزارُ به شوقي إليكِ يجلُّ عن وصفي
أسهرتَ عيني في تفرُّقنا ما التذ بعدَك بالكرى طرفي
أغفى لكي ألقاكَ في حلمي ومن الكبائرِ ثاكلٌ تغفي»[٣٢]

ولم يكن هذا الترف الذي لا ينتهي مجلبة للسعادة بالنسبة للجواري، صحيح أنهن يرفلن في الدمقس وفي الحرير، ويتعطرن بأفخر العطور والطيب، ويعاشرن علية القوم، ويأكلن ويشربن ما لذَّ وطاب على أنغام الطنبور، إن كل هذا لم يكن سبباً كافياً للسعادة، بل كان البؤس النفسي ملازماً لهن لأنهن في رقٍّ، وليس لهن الحرية في اختيار أي شيء، حتى لحظات قول الشعر كانت بأمر السيد حينما يخطر في باله أن يسمع شعراً من جاريته. لننظر في هذا الخبر: «سمعت مروان بن أبي حفصة يقول: لقيني الناطفي، فدعاني إلى عنان، فانطلقت معه، فدخل إليها قبلي، فقال لها: قد جئتك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة! وكانت عليلة، فقالت إني عن مروان لفي شغل فأهوى لها بسوطه فضربها به، وقال لي: ادخل! فدخلت وهي تبكي، فرأيت الدموع تتحدر من عينيها، فقلت:

٣٢ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ١١٠.

بكتْ عنانُ فجرى دمعُها كالدُّرِّ إذ يَسْبقُ من خيطِهِ

فقالت مسرعة:

فليتْ من يضربُها ظالماً تيبَّست يُمناهُ على سَوْطِهِ

فقلت للناطفي:

أعتق مروان ما يملك إن كان في الجن والإنس أشعر منها! »[٣٣]

ومثله أيضاً هذا الخبر مع عنان نفسها، وكيف تحولت إلى أداة يريد مولاها أن يعبث بها «دخل أبو نواس على الناطفي وعنان جالسة تبكي وخدها على رزة في مصراع الباب، وقد كان الناطفي ضربها، فأومأ إلى أبي نواس: أن جربها بشيء»[٣٤]

ولم تكن الجواري في خضوع صامت، بل كن بين الفينة والأخرى يظهرن تبرماً واعتراضاً على هذه الطريقة والمعاملة. ولكن في نهاية الأمر لا يستطعن إلا فعل الصمت، كما قالت نسيم جارية أحمد بن يوسف الكاتب وقد غضب منها:

سطوتَ بعزِّ الملكِ في نفسِ خاضعٍ ولولا خضوعُ الرقِّ ما كنتُ أصبرُ [٣٥]

٢.٢ المدح:

حاز شعر الغزل والشرب والقصف على نصف الكتاب تقريباً، ثم جاء المدح بمئة وخمسة عشر بيتاً، وحازت بقية الموضوعات كالرثاء والوصف والاعتذار على ما تبقى من أشعار الكتاب؛ لذلك كان حضورها شحيحاً إذا قيس بنتاج كل شاعرة على حدة. يقول أبو الفرج: «حدثنا أبو العيناء قال: لما دخلت فضل الشاعرة على المتوكل يوم أهديت إليه، قال لها: أشاعرة أنت؟ قالت هكذا يزعم من باعني واشتراني! فضحك وقال:

أنشدينا شيئاً من شعرك، فأنشدته هذه الأبيات:

٣٣ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٣٠.
٣٤ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٣٢.
٣٥ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ١٠٢.

استقبلَ الملكَ إَمامُ الهُدى عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
خلافةً أفضتْ إلى جعفرٍ وهو ابنُ سبعٍ بعدَ عشرينا
إنَّا لنرجو يا إمامَ الهُدى أنْ تملكَ الملكَ ثمانيا
لا قدَّسَ اللهُ امرأ لم يقُل على دعائي لكَ آمينا

فاستحسن الأبيات، وأمر لها بخمسين ألف درهم، وأمر عريباً فغنت بها»[٣٦]

ذكر الأصفهاني تعليقاً على الأبيات حدوث ثلاثة أشياء؛ الأول: استحسان المتوكل لهذه الأبيات، على الرغم من أنها نظم تقريري سخيف لا صورة فيه ولا معنى طريفاً، بل هي سرد تقريري تذكر فيها فضل الشاعرة متى تسنَّم الخليفةُ سُدة الملك، وتطلب له من السامعين طول العمر في السلطة. والمتوكل كان ذا ثقافة واسعة في الأدب والشعر، فأنَّى له أن يستحسنَ مثل هذا النظم، ثم إنه أمر لفضل بخمسين ألف درهم لأنها قالت هذه الأبيات، وهذا مال كثير لا يمكن للمتوكل أن يأمر به إلا إذا كان مخموراً تحت سطوة الحُميَّا وغنج الجارية وتدلها ونرجسية أناه التي فتكت بكل المخالفين والمناوئين له. ثم إنه أمر عَريباً أن تغني بهذه الأبيات، وهذا وارد لأنها مقطعة صغيرة وقافيتها نونية مع ألف الإطلاق التي تعطي مدى واستطالة أثناء الغناء، ومقاطعها قصيرة سهلة التلحين والغناء، ومن ثم سريعة الانتشار، وهي تداعب نفسية رجل ظفر بالسلطة بعد أن كانت ستضيع من بين يديه، فهو بحاجة ليشيع تمجيده بين الناس.

وأصابت المتوكل وعكة فلما عوفي قالت عَريب المأمونية تمدحه:

حمدنا الذي عافى الخليفةَ جعفراً على رغمِ أشياعِ الضلالةِ والكفرِ
فما كان إلا مثلَ بدرٍ أصابَه كسوفٌ قليلٌ ثم جلَّى عن البدر
سلامتُه للدينِ عزٌّ وقوةٌ وعلتُه للدينِ قاصمةُ الظهرِ
مرضتَ فأمرضتَ البريةَ كلَّها وأظلمتِ الأبصارُ من شدةِ الذعرِ
فلمَّا استبانَ الناسُ منكَ إفاقةً أقاموا وكانوا كالنيامِ على الجمرِ
سلامةُ دنيانا سلامةُ جعفرٍ فدامَ معافىً سالماً آخرَ الدهرِ
أقامَ يعمُّ الناسَ بالعدلِ والتُّقى قريباً من التقوى بعيداً عن الوزرِ

٣٦ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٦٢.

كانت المعاني التي ذكرتها عريب في هذه الأبيات متداولة مكرورة في موضوع المدح؛ فالخليفة بدر يُستضاء به، وإذا ألمت به ملمة حل كسوف على الأمة، وهو حامي البلاد من الكفر، وإذا دهمته كربة ظل الناس في كربة أعظم؛ لأن سلامة الدنيا كلها قائمة على سلامة جعفر الذي يشيع العدل والتقى بين الناس، فلم يكن في هذه الأبيات أي معنى جديد أو صورة مبتكرة.

٣.٢ الرثاء

جاء الرثاء في مرتبة متأخرة، فقد رصدنا ستة وعشرين بيتاً فقط؛ وذلك عائد لطبيعة حياة الجواري التي لا تستقر عند سيد واحد لتغادره، فانعقاد العلاقات الطويلة نادر، وكانت مقطعات الرثاء مطارحات قصيرة من ذوات البيت والبيتين. يقول أبو الفرج: «كتب إليَّ الزبير بن بكار يذكر أن علي بن عثام الكلابي حدثه قال: جئت يوماً إلى منزل محمد بن كناسة، وكانت جاريته دنانير جالسة، فقالت لي: مالك محزوناً يا أبا الحسن؟

قلت: رجعت من دفن أخ لي من قريش، فسكتت شيئاً ثم قالت:

بكيتَ على أخٍ لكَ من قريشٍ فأبكانا بكاؤك يا عليُّ
وما كنَّا عرفناه ولكن طهارةُ صحبِه الخبرُ الجليُّ»[٣٧]

فدنانير الشاعرة لا تعرف من الميت، ولكن الدموع غلبتها لأن أبا الحسن كان محزوناً فبكت لأجله، والملاحظ أن أغلب المقطعات كانت تصاغ بطريقة قصصية، وفيها حوار، يستطيع المرء من خلال هذا الوصف الدرامي تصور المكان والحدث.

ولا يعدم المرء في فضاء الرق والنخاسة والمتعة والقصف مواقف وفاء، فقد روى أبو الفرج: «أن جواري المتوكل تفرقن بعد قتله، فصار لوصيف عدد منهن، فيهن محبوبة، فاصطبح يوماً وأمر بإحضار الجواري فأُحضرن وعليهن الثياب الفاخرة الملونة والحلي، وقد تزين، إلا محبوبة فإنها جاءت في بياض غير فاخرة؛ فغنى الجواري وشرب، وقال لمحبوبة: غني، فأخذت العود وغنت وهي تبكي:

٣٧ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ٥٤.

أيُّ عيشٍ يطيبُ لي لا أرى فيه جعفرا
ملكاً قد رأته عي نيَّ طريحاً معفَّرا
كلُّ من كان ذا سُقا مٍ وحزنٍ قد برا
غير محبوبةَ التي لو ترى الموتَ يُشترى
لاشترتْهُ بملكها كي توارى وتقبرا
إن موتَ الأخوين أطيبُ من أن يُعمَّرا

فاشتد ذلك على (وصيف)، وهم بقتلها فاستوهبها (بُغا) فأعتقها فأخملت نفسها إلى أن ماتت»[٣٨]

وقبل أن يشتد هذا القول على وصيف كما روى أبو الفرج، اشتد الأمر على محبوبة، التي لم تنس كيف جندل الجنود الخليفة، ولم تنس كيف رأته طريحاً معفَّراً. كيف لها أن تتصور الحياة دون جعفر الذي كان ملء العين والبصر، والذي يمثل خلاصة الترف في العصر العباسي، فليس لها هناءة عيش بعده، والموت والخمول أحب إلى قلبها من أن تبدأ مع سيد جديد تغني له لتطربه، وهذا ما كان.

لم يكن في الكتاب قصائد بالمصطلح المتعارف عليه في ذلك الزمان، بل كانت في الأغلب مقطعات صغيرة لا تتجاوز أربعة الأبيات في أغلب الأحيان، إلا بعض قصائد المدح التي قالتها عَريب المأمونية.

صحيح أن الإماء الشواعر قلن شعراً في أغلب المواضيع، ولا سيما المدح والرثاء، ولكن لم يكن هذا الدور الذي وجدن من أجله في هذا المجتمع وهذا السياق التاريخي، فقد عاشت شواعر هذا الكتاب في زمن أبي نواس وأبي تمام والبحتري؛ الشعراء الذين كان الخلفاء يعوِّلُ عليهم في مواضيع الرثاء والمديح. ومدائح أبي تمام في المعتصم شائعة بين الناس، وكذلك مدائح البحتري ورثاؤه للمتوكل، ولم تكن المعاني التي قيلت في أبيات الإماء الشواعر ذات صنعة، بل كانت في الأغلب الأعم نظماً مرتجلاً بطلب من الخليفة أو السيد، فتقول الشاعرة على البديهة بيتاً أو بيتين، أو يُطلب منهن الإجازة فتجيز بشطر أو تقول بيتين، ولم نلمح في شعر هؤلاء أثراً للمدرسة الشامية؛ أي: مدرسة البديع التي بدأت على يد

٣٨ الأصفهاني، *الإماء الشواعر*، ١٦٢.

ديك الجن الحمصي، ونضجت على يدي مسلم بن الوليد، واحترقت على يدي أبي تمام، بل كان قولهن يسير في خط منفصل تماماً عن الحركة الشعرية في زمانهن، سوى أنهن كن يملن إلى البسيط من اللفظ، وإلى البحور الخفيفة التي يستطيع المغنون تلحينها، ولا سيما أن أغلبهن كن يحسن صنعة الغناء.

الخاتمة والنتائج

يمثل كتاب الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصفهاني وثيقة تاريخية لابد من الوقوف عندها ملياً، تاريخياً وفنياً، لأنها تحاول استدراك ما أهمله مؤرخو الأدب في ذلك العصر لشعر النساء، وتسعى إلى توثيق شعر الإماء منهن على وجه الخصوص.

إنَّ التنقير في هذا المجموع الذي صنفه الأصفهاني يساعد المرء على بناء تصور عن الحياة في قصور الخلفاء، وعن الأعيان والإماء الشواعر والناس في القرنين الثاني والثالث الهجريين، على تفاوت في هذا التاريخ، فقد كانت بعض السير الذاتية التي أوردها أبو الفرج بسيطة لا يستطيع المرء من خلالها بناء تصور عن الفترة الزمنية وأناسها، ولا يستطيع –لقلة المعلومات– رسم ملامح واضحة للشخصية التي يترجم لها أبو الفرج، ولكنه من خلال النظر في السير الذاتية مجملة وضم التفاصيل المتفرقة هنا وهناك، يصل إلى لوحة كاملة عنوانها حياة الإماء الشواعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

يستطيع المرء من خلال ترجمات الشواعر وذكر نماذج لأَّشعارهن أن يستبين الحال التي كُنَّ عليها من بؤس وشظف، فقد كُن يُطلبن للجمال والملاحة والنباهة والقدرة على العزف على الطنبور، لأن المهمة المناطة بهن هي نشر اللذة في المكان الذي يُقمن فيه حتى لو لم يستطعن إلى ذلك سبيلا، والقدرة على قول الشعر من المستلزمات التي تصب في موضوع اللذة؛ لأن الشواعر منهن – وهن قلة مقارنة بعدد الجواري الذي كان بالآلاف – كنّ ينظمن البحور القصيرة التي تغني في جلسات الأنس، وكانت في أغلب الأحيان ذات نزعة قصصية تصف المشاهد التي عليها الندماء من خلفاء وأعيان وجوارٍ وسُقاة، فمهمة شعر الجواري لم تكن تسير في سياق القصيدة العربية في ذلك العصر الذي وجد فيه أبو نواس، وأبو تمام، وصريع الغواني مسلم بن الوليد، والبحتري، فليست مهمتهن الأولى مديح الخلفاء ضمن الدعاية التي كانت إحدى مهمات الشعر؛ لأن الخلفاء يعتمدون في هذا على الأعلام الذين مرّ ذكرهم، والذين وصلوا في القصيدة العربية إلى أقاصي التجويد الفني.

جاء الغزل والدعوة إلى الشراب في المقام الأول؛ حيث أحصينا نصف الأبيات الواردة في مجموع الأصفهاني التي تصف هذا المشهد، ثم جاء موضوع المديح من حيث العدد، ولم تكن معاني المديح من الأبكار، بل يستطيع المرء دون عناء أن يدرك أنها من المعاني التي شاعت بين الناس في ذلك الزمان؛ فالخليفة أو الوزير أو العَيْن، كريم شجاع هصور وابن أرومة شريفة، ثم جاءت أبيات الرثاء والوصف، ولم يكن في الكتاب قصائد بحسب مصطلحات النقد الأدبي في ذلك الزمان، بل كانت مقطّعات صغيرة لا تتجاوز أربعة أبيات في أغلب الأحيان، عدا بعض قصائد المدح التي قالتها عَريب المأمونية.

المصادر والمراجع

الأصفهاني، أبو الفرج. (ت ٣٥٦/٩٦٧). *الإماء الشواعر*. تحقيق: جليل العطية. بيروت: دار النضال، ط١، ١٩٨٤.

الزركلي، خير الدين. (ت ١٩٧٦). *الأعلام*. بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢.

زيدان، جرجي، (ت ١٩١٤). *تاريخ التمدُّن الإسلامي*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط١، ٢٠١٢.

ضيف، شوقي. *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*. مصر: دار المعارف، ط١١، ١٩٦٠.

الطبوبي، ليلى حرمية. *القيان والأدب في العصر العباسي الأول*. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠١٠.

العشماوي، محمد زكي. *موقف الشعر من الفن والحياة*. بيروت: دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨١.

كحالة، عمر رضا. *أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام*. بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت.

مهنا، عبد. *معجم النساء، الشاعرات في الجاهلية والإسلام؛ خطوة نحو معجم متكامل*. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠.

Kaynakça

İsfahânî, Ebü'l-Ferec. *el-İmâu'ş-Şevâir.* tah. Celil Atiye. Beyrut: Dâru'n-Nidâl, 1984.

Ziriklî, Hayreddin. *el-Alâm*. Beyrut: Dâru'l-İlm li'l-Melâyîn, 15. Baskı, 2002.

Zeydân, Corcî. *Târîhu't-temeddüni'l-İslâmî.* Kahire: Müessesetü'l-Hindâvî li't-Ta'lîm ve's-Sekâfe, 2012.

Dayf, Şevkî. *el-Fen ve Mezâhibuh fi'ş-şi'ri'l-Arabî*. Mısır: Dâru'l-Mearif, 11. Baskı, 1960.

Tabûbî, Leyla Harmiyye. *el-Kiyan ve'l-edeb fi'l-asri'l-Abbâsiyyi'l-üvel*. Beyrut: Müessesetü'l-İntişari'l-Arabî, 2010.

Aşmavi, Muhammed Zeki. *Mevkifu'ş-şi'r mine'l-fenni ve'l-hayât*. Beyrut: Dâru'n-Nahdati'l-Arabiyye, 1981.

Kehhâle, Ömer Rıza. *A'lamu'n-nisâ fi âlemeyi'l-Arab ve'l-İslâm*. Beyrut: Müessesetü'r-Risâle, ts.

Muhannâ, Abd. *Mu'cemü'n-nisâ, eş-Şâirât fi'l-Câhiliyye ve'l-İslâm, Hutva nahve mu'cemin mütekâmil*. Beyrut: Dâru'l-Kütübi'l-İlmiyye, 1990.